

سينمائيون في رحلة شيقة من القاعات المظلمة إلى نور الشهرة

الناقد المغربي أحمد سيجلماسي يوثق لسيرة أهم وجوه السينما المغربية

ليس غريبا أن يلاحظ المتابع للسينما المغربية وجوه الفقراء وعوالمهم في معظم ما أنتج من أفلام روائية أو وثائقية أو مسلسلات تلفزيونية، منذ نهاية الثلاثينات إلى يومنا هذا. ويتبادر إلى ذهن المتابع، سؤال: لماذا هذا الظهور المتكرر للأبطال الفقراء في السينما المغربية، والمجتمع المغربي كأي مجتمع عربي آخر فيه الفقراء ومتوسط الحال والأغنياء؟ هذا وغيره من الأسئلة حول بدايات، ومستقبل السينما المغربية أجاب عنها كتاب "وجوه من المغرب السينمائي" لأحمد سيجلماسي.



فيصل عبدالحسن
كاتب عراقي

تنقل صفحات كتاب "وجوه من المغرب السينمائي" للناقد السينمائي المغربي أحمد سيجلماسي إلى الأربعينات والخمسينات من القرن الماضي إلى الدار البيضاء، وإلى أطفال فقراء، كمحمد ركاب وأسرته الفقيرة، التي يعيها والده الموظف البسيط في بلدية الدار البيضاء، الذي كان يجول وبصحبته عدد من الأطفال المغامرين يجمعون بينهم ما يوجد به أهلهم عليهم من مال قليل، لكي يرتادوا القاعات السينمائية المظلمة لبعض الأحياء الشعبية بالدار البيضاء، ليشاهدوا بين وقت وآخر أفلاما أميركية وأوروبية ومصرية.

السينمائيون المغاربة ركزوا على إظهار الفقر في معظم شخصيات أفلامهم لأنهم هم أنفسهم كانوا الفقراء وعاشوا مرارته

وكان من أولئك الصحبة: مصطفى الخياط، محمد الزباني، أحمد البوعناني إضافة إلى محمد ركاب، وجميع هؤلاء الأطفال صاروا في ما بعد مخرجين سينمائيين أسسوا مع غيرهم للشريط الفيلمي المغربي الحديث. يتتبع الكتاب رحلة السينما المغربية وأهم نجومها منذ بداياتها إلى اليوم، وقد صدر مؤخرا في جزأين عن دار النشر المغربية بتمويل من مهرجان سيدي عثمان للسينما المغربية بالدار البيضاء.

سينما الفقراء

حياة الفقر في الخمسينات التي لاحظها هؤلاء الأطفال في "درب غلف" و"درب السلطان" و"المعاريف" وحواري



السينما المغربية بقيت ودية للمهمشين

مجد، فاطمة الريراكي، نعيمة مشرقي، محمد الدهان، قويدر بناني وغيرهم. ومن الوجوه النسائية السينمائية، التي تناول حياتها الكاتب أمينة رشيد، التي أمضت في التمثيل المسرحي والتلفزيوني والسينمائي ستة عقود، وبدأت بتمثيلها في فيلم "طبيب بالعافية" من إخراج الفرنسي هنري جاك، عن نص مسرحي لموليير بعنوان "طبيب رغم أنه". والفيلم إنتاج فرنسي مغربي مشترك مثل فيه كمال الشناوي، أميرة أمير، ومحمد التايبي، وغيرهم. وفيلم "غدا لن تتبدل الأرض" لإخراج عبدالله المصباحي و1975 و"إبراهيم ياش" لإخراج لنبل لعلو و1982 و"البحث عن زوج امراتي" لإخراج محمد عبدالرحمان التازي و1993 و"لا حبي" لمحمد عبدالرحمان التازي و"سارق الأحلام" لإخراج حكيم نوري و1995 "سوزانا" للمخرج الإسباني أنطونيو تشافارياس و1996 و"فيها الملح والسكر وما يغاتش تموت" لإخراج حكيم نوري و2005 و"حجاب الحب" لإخراج عزيز السالمي و2008 و"زينب، زهرة أغمات" لإخراج فريدة بورقبة و2013 و"عائدة" لإخراج إدريس الميريني و2014.

العديد من المحاولات والإغراءات من مخرجين مهمين ليشارك في أفلامهم، ولكنه كان دائم الرفض، لكل ما عرض عليه من عروض مغرية، ولكن المظلة ثريا جبران استطاعت أن تقنعه بعد جهد كبير أن يمثل معها في فيلم تلفزيوني بعنوان "لاباس والو لاباس" إخراج حسن غنجة لقناة دوزيم المغربية.

تبقى بطولته الفنان محمد الحبشي لفيلمي "السراب" و"حلاق درب الفقراء" علامة بارزة في مسيرته الفنية الحافلة بالتلقائية وتقديم ملاحظ شخصيات مغربية فقيرة، لكنها في قمة الذكاء والأريحية والكرم والشجاعة. توفي الفنان محمد الحبشي بعد معاناة طويلة مع مرض السرطان بالدار البيضاء في العام 2013. ومن الوجوه السينمائية التي تناولها الكتاب أيضا مصطفى السنائي، عبدالجبار الوزير، خديجة جمال، محمد خلفي، محمد عيازي، محمد بسطاوي، حميدو بنمسعود، محمد

واقته الفرصة، فمثل دورا في فيلم "لورانس العرب" 1962 من إخراج الإنكليزي ديفيد لين، الذي مثل الكثير من مشاهده جنوب المغرب، بمشاركة نجوم عالميين كبار، ككينيث أونول وأنطوني كوين وعمر الشريف. وتم اختيار محمد حبشي بعد ذلك، لتمثيل العديد من الأفلام المغربية كـ"اليالي أندلسية" لإخراج العربي بناني و1963 و"شمس الضباغ" لإخراج التونسي رضا الباهي و1974 وتمثيل الفنان المصري محمود مرسى، و"رماد الزريبة" و1976 و"السراب" لإخراج أحمد البوعناني و1979 و"تاغونجة" لإخراج عبدو عشوية و1980 و"بامو" لإخراج إدريس الميريني و1984.

وما أن توفي والده في العام 1984، حتى شعر محمد الحبشي بتأنيب الضمير، لأنه لم يطع والده بترك التمثيل، وبقي والده غاضبا عليه حتى وفاته، فقرر أن يوقف فيلموغرافيته إلى الأبد، والعودة إلى أرض أبيه لزراعتها والاستقرار في قريته التي تركها. وبذلت

عملية لزراعة رثتين بمستشفى فوش بباريس، ونجحت العملية، وأمدت بعمر الفنان عدة أشهر أخرى قبل أن يتوفى في أكتوبر من العام نفسه.

لورانس العرب

من الوجوه السينمائية المغربية التي تناولها الكتاب، محمد الحبشي، الذي بدأ كممثل مسرحي منذ منتصف الخمسينات بالدار البيضاء، والتحق بالمركز المغربي للأبحاث المسرحية بالرباط، ومدة الدراسة فيه ثلاث سنوات، وكان أول وقوف له أمام كاميرا السينما في سنة 1959 بالفيلم القصير "بوخو النجار" لإخراج محمد عصفور. وبعد تخرجه من المركز المسرحي بالرباط 1961 عمل ببعض الفرق المسرحية، كفرقة البدوي وفرقة المعمورة وفرقة المسرح البلدي. وكانت أسرته رافضة لعمله في المسرح، وكان والده مزارعا وله أرض في منطقة النواصر بضواحي الدار البيضاء، وهو من أشد الراضين لعمله في التمثيل، ولكن الفنان لم يعا برفض أسرته لعمله الفني.

الشاعر والجمهور

دون ذلك لا يكونون قادرين على تأمين رزقهم، وعلى إثبات مكانتهم الشعرية. وخلال القرون الوسطى، ظهر في شبه الجزيرة الأيبيرية، وأيضا في فرنسا، وفي ألمانيا شعراء التروبادور، أو الشعراء المنشدون، الذين كانوا يتنقلون بين القصور لإنشاد قصائدهم على أنغام الموسيقى. ويقال إنهم كانوا امتدادا لشعراء الموشحات في الزمن الأندلسي الجميل عندما كان العرب يعيشون في الذعة والرخاء.

وخلال القرن العشرين برز شعراء في جل الثقافات واللغات، كانوا قادرين على أن يملأوا القاعات الفسيحة، بل الملاعب الرياضية عند قراعتهم لأشعارهم. وهذا كان حال ماياكوفسكي وايفتشكو في روسيا، ونيرودا في التشيلي، وأحمد شوقي، والجواهري، وبدوي الجبل، وزار قباني، ومحمود درويش في العالم العربي. لكن عزوف الشاعر عن قراءة قصائده أمام الجماهير، وفي أماكن فسيحة، بدأ مع الشعراء الرومانسيين في القرن الـ19، ثم ازداد ترسحا لدى شعراء الحدأة، فنحن لا نعلم مثلا أن بودلين، أو رامبو، أو مالارميه، أو إدغار آلن بو، أو هولدرلين، أو غيرهم من شعراء الحدأة، أظهروا ولو لمرة واحدة رغبتهم في قراءة قصائدهم أمام جمهور غير، بل كانوا يفعلون ذلك في حلقات ضيقة لا تتسع إلا للمقرئين منهم. وكان الفيلسوف الدنماركي كيركوغارد من أوائل من عبر عن ظاهرة

أمام الجمهور. وهذا كان حال أبي العلاء المعري على سبيل المثال لا الحصر. أما جل الشعراء الآخرين فقد كانوا يتهافون على قراءة أشعارهم في المجالس الكبيرة، وبحضرة الأعيان، أو أمام الملوك والأمراء وأهل النفوذ. فمن

لأعراضهم، وذئب عن أحسابهم، وتخليد لمآثرهم، وإشادة بذكورهم، وكانوا لا يهتفون إلا بسلام يولد، أو شاعر ينج فيهم، أو فرس تنتج. وبعد الإسلام، نادرون هم الشعراء الذين كانوا ينفرون من قراءة قصائدهم

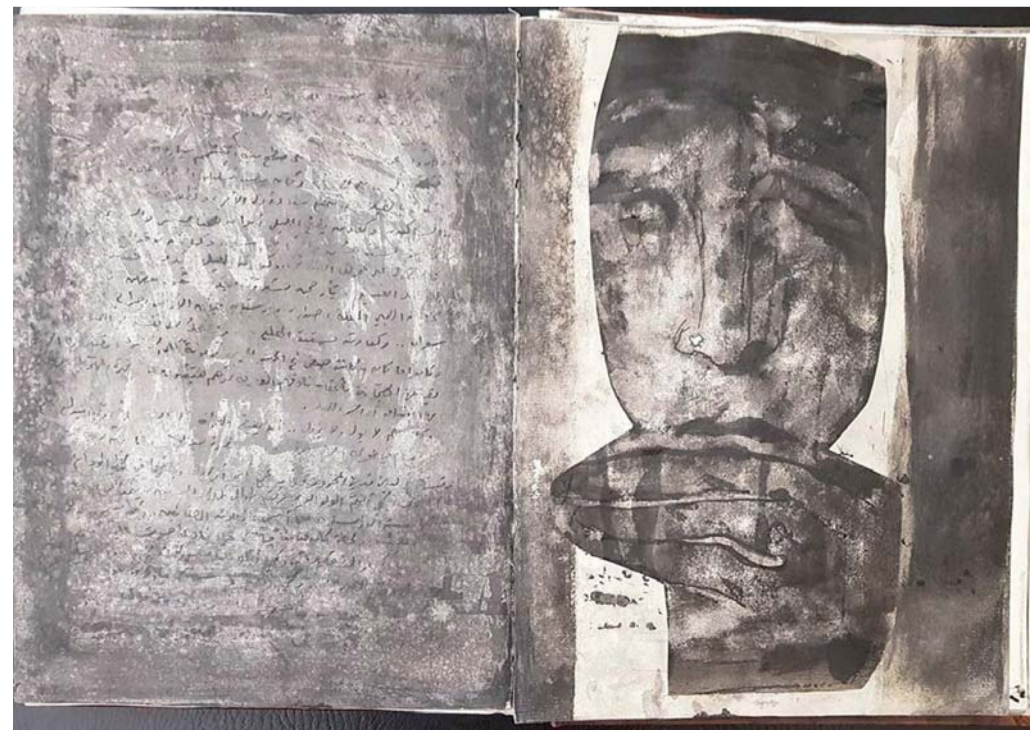
عن ذلك كتب ابن رشيق في "عمدته" يقول "كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها، وصنعت الأظعمة، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعون في الأعراس، ويتباشر الرجال والولدان؛ لأنه حماية



حسونة المصباحي
كاتب تونسي

يقول مؤرخو الأدب إن هوميروس الذي كان أعشى، أضحى الشطر الأكبر من حياته منتقلا بين الجزر اليونانية لينشد أشعاره على الناس... أما الشعراء الصيغيون القدماء فلم يكونوا بحاجة إلى الجمهور. لذا كانوا يفضلون العيش في أحضان الطبيعة مثلما سيفعل الشعراء الرومانسيون في ما بعد بهدف "القبحض على ما يصعب إمساكه وإدراكه"، وسعيا منهم لبلوغ المطلق، كانوا يجتازون ظواهر الأشياء، ويمضون في التأمل بعيدا حد الإطالة على الأعماق المعتمة، وعلى العدم:

من دون أن نتأثر العتبة نتعرف على الكون من دون أن ننظر من النافذة نستشف طريق السماء إلى أبعد حد نذهب نحن لا نعرف إلا القليل وفي أسواق عكاظ وغيرها من أسواق الجزيرة العربية قبل الإسلام، كان الشعراء يتبارون في قراءة قصائدهم أمام جماهير غفيرة. وبالذهب كانت تكتب المعلمات على جدران الكعبة بمكة لكي يقرأها الناس في موسم الحج. وكان الشاعر قبل الإسلام يحب أن يكون "فارس" قبيلته و"فلحها" و"لسانها القاطع"، ونصيرها في الحروب، وفي الملمات.



جمهور الشاعر هو نصه (لوحة للفنان إسماعيل الرفاعي)



الشاعر الحديث لا يحتاج إلى جمهور، بل يحتاج إلى حياته الخاصة ليكون مبدعا حرا بالمعنى الحقيقي للكلمة

عزوف الشاعر من الجمهور، ومن الميادين الفسيحة قائلا إن الجمهور ليس أمة، ولا جيلا، ولا مجموعة بشرية، ولا مجتمعا، ولا أشخاصا بعينهم؛ لأن كل شخص ينتمي إلى الجمهور لا يمكن أن يكون "ملتزما" بكل ما يفعله هذا الجمهور. لذلك فإن هذا الجمهور بحسب رأي كيركوغارد ليس في النهاية سوى هذا الشيء "الهائل، وهذا الفراغ التجريدي المهجور الذي هو في الآن نفسه كل شيء ولا شيء". وفي كتابه "الشاعر في المدينة"، يشير الشاعر البريطاني أودن إلى أن الشاعر الحديث لا يحتاج إلى جمهور، بل هو يحتاج في الحقيقة إلى "حياته الخاصة ليكون مبدعا حرا بالمعنى الحقيقي للكلمة". وحسب أودن قد يكون للجمهور مفهوم سيء كان يرمز مثلا إلى ذلك الجمع الغفير من الناس الذين يتجمعون لمشاهدة سحل وإعدام إنسان، أو لمشاهدة من يقومون بتحطيم بيت قديم لعائلة عريقة.